الباب الأول

مدخل إلى القصص القرآني

يكاد القصص القرآنيّ يكون رديفًا لقصص الأنبياء، لغلبة قصصهم عليه. ولكي يكون في قصصهم عِبرة لأولي الألباب ينبغي أن نقرأها على أنّها تحكي وقائع وأحداثًا، جرت في مجتمعات بشريّة، يعيش الناس فيها كما نعيش نحن، وأن أبطالها بشر قبل أن يكونوا للحقّ رسلاً، وقد دأب الأنبياء عليهم السلام على تثبيت ذلك المعنى في النفوس ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ٩٣: الإسراء!

فحيَوات الأنبياء والرسل ليست عوالم خياليّة، قائمة في ممالك الأسطورة، ومحكومة بقوانين الخرافة التوراتيّة، بل هي حيَوات حقيقيّة مميّزة، لرجال أفذاذ مميَّزين، اختارهم الله الحقّ لهداية الناس، وما في حيواتهم من معجز إلاّ ما أيّدهم به الله، ممّا تقصّر عقول مخاطبيهم عن إدراك أمر الله فيه.

إن علينا أن نحيّد ما توارثته الذواكر من حكايات مخجلة، تلازم هذا القَصص، وأن ننظر فيه من خلال النصّ القرآنيّ في ذاته أوّلاً، وفي طبيعة ظروف التنزيل الزمانيّة والمكانيّة والفكريّة لمن تنزّل فيهم ثانيًا، وباعتبار أسباب التنزيل، إذا عُرفت، ثالثًا.

وعلينا أن نعود إلى أصول طائفة من الكلمات والمفاهيم التي تشكّل الهيكل الفكريّ للقصص القرآنيّ كالنبوّة، والرسالة، والوحي، والغيب، والمعجزة، والكتاب. ونصدّع أغلفتها المتحجّرة، التي تتوارثها عقول الأجيال، وتقوم على حراستها طائفة من المشتغلين بتحنيط النصوص، وتسجيتها في ملايين من النواويس، تدعوها كتب التراث، دون أن تدرك من الحفظ ما أدركه يوسف عليه السلام حين قال: ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ٥٥: يوسف.

وعلينا أن نقف على طبيعة هذا القصص وأشكاله، وخصائصه، وأهدافه التي حدّدها الكتاب المبين، لكي نتمثّل الحدث، ونعي دلالاته، وننجح في إسقاطه على متغيّرات الحياة، واتّخاذه نموذجًا يكشف معالم الطريق، ويبيّن مواقع الخطا. ونعايش هذه القمم الإنسانيّة المصطفاة، لنستخرج من ذواتنا أقصى قدراتها، ونمارس دورنا في القيام على إقرار الحقّ في الأرض، كما قضى الله عندما خلق الإنسان، وسوّاه، ونفخ فيه من روحه.

* * *

الفصل الأول

في النبوة والأنبياء

النبيّ صفة مشبّهة من النُّبوّ أي العُلوّ، فهو فَعِيل كعَظيم. واسم مفعول من أُنبئ، أي أُخبر، فهو نبيء. ونبيء فَعِيل بمعنى مُفعَل، أي مُنبَأ. والنبيّ هو من تلقّى عن الله حصرًا.

النبوّة والرسالة

النبوّة، بكلّ ملابسات علاقتها بالرسالة، ظاهرة ملازمة لوجود الإنسان العاقل، أي المكلّف، على هذه الأرض، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ ١٦٥: النساء[1]. والنبيّ هو «من أُوحي إليه بملَك، أو أُلهم في قلبه أو نُبِّه بالرؤية الصالحة»[2]، والرسول «هو الذي أمره المرسِل بأداء الرسالة بالتسليم أو القبض. قال الكلبيّ والفَرّاء: كلّ رسول نبيّ من غير عكس. وقالت المعتزِلة: لا فرق بينهما، فإنّه تعالى خاطب محمّدًا بالنبيّ مرّة، وبالرسول مرّة أخرى»[3].

فالنبيّ موحًى إليه، ولكنّه ليس مأمورًا بالتبليغ، وإنّما عنده حكمة يعلّم بها الناس دون أن يؤمر بذلك. أمّا الرسول فقد أُوحي إليه بشرع، وأُمر بتبليغه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ ٦٧: المائدة، وخطاب رسول الله مرّة بالنبيّ وأخرى بالرسول لا يصلح دليلاً على عدم الفرق بين الصفتين.

ولعلّ إضافة صغيرة إلى ما تقدّم تعيننا على إحكام الإحاطة بهذا الأمر، فالنبيّ مَن أُوحي إليه بما يتعلّق بأصل المعتقَد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ ٢٥: الأنبياء، أمّا الرسول فقد أوحي إليه بهذا وزيادة، وتلك الزيادة هي شرع أُمر بتبليغه. فالنبوّة أصل في الأمر، والرسالة تمامه وكماله.

---

(١) انظر قصة آدم عليه السلام.

(٢) كتاب التعريفات للجرجاني: النبي.

(٣) المصدر نفسه: الرسول.

والنبيّ وإن لم يكن منوطًا به التبليغ، فهو بحكم كونه نبيًّا لا بدّ أن يبلِّغ، ولا يَلزم أن يبلِّغ على نطاق واسع «يجيئ النبيّ ومعه الرجل والرجلان»[1]، فإذا أُنيط به، إلى ذلك إبلاغ شرع، فهذا يعني أن الله قد اصطفاه ليكون رسوله إلى الناس، ووهبه قدرة أكبر على التبليغ والإيصال.

ويطّرد في الأنبياء أن يبلغوا النبوّة في سن الأربعين، وهذا ناتج، وليس أصلاً مقرّرًا، فمعروف أن أمر الرجل يُجمع له، نبيًّا كان أو غير نبيّ، في محيط هذه السنّ. ويعبّر القرآن العظيم عن بلوغ هذه المرحلة ببلوغ الأشُدّ، حيث تكتمل التجارب وتنضج، وتغدو وعاءً صالحًا للحقّ المنزل من الله.

لقد جاء الأنبياء والرسل جميعًا ابتداءً بآدم، وانتهاءً بمحمّد بـ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ ٢٥: الأنبياء، أي لا عبوديّة ولا خضوع إلاّ لله الحقّ، وهذا هو التوحيد. ولكنّ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ ٢٥: الأنبياء، مركوزة في فطرة الإنسان مُذ صار إنسانًا، أي مذ أخذ الله ميثاقه، وأشهده على نفسه: ألست بربّك؟ وقال: بلى.

فالنبيّ الأوّل الذي قام في الناس، إنّما قام فيهم مذكّرًا بأصل فطرتهم ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ٢١: الغاشية، ذلك الأصل الذي فقد حضوره المطلوب في حياتهم، لطول العهد، وقصور الأداة. وهذا خلاف ما يعتمده المشتغلون بعلم الأديان.

في علم الأديان المقارن أن البشريّة تطوّرت من الوثنيّة إلى التوحيد[2]، وقد يكون هذا صحيحًا في الحسابات الجزئيّة المرحليّة، حيث يُعتبر بدء التاريخ بدءًا للواقع، رغم أنّه بدأ بعد أحقاب وأحقاب من تطوّر العقل الإنسانيّ، وبعد أن تعاقبت على الإنسان أطوار وأطوار من الهدى والضلال.

إن احتكامنا إلى التاريخ في الأمور التي تتعلّق بأوّليّات الإنسان عبث لا طائل وراءه، ولا

(١) أخرجه ابن ماجه في باب «صفة أمة محمد».

(٢) انظر سيد قطب، في ظلال القرآن: تفسير سورة هود عليه السلام.

يفضي بنا إلى شيء من الحقيقة، وهو إن كان يمكّننا من بعض النقاط، فهي نقاط جزئيّة أفقيًّا من حيث انعدام إمكانيّة الإحاطة بما حولها، وجزئيّة عموديًّا من حيث كونها منبتّة عن جذورها، إذ لا يمكننا تتبُّع هذه الجذور لمعرفة أصلها، وما تطوّرت عنه. فهي نقاط لا تعني إلاّ ذاتها، ولا تصلح في أفضل الأحوال إلاّ قرينة يُستأنس بها، ومؤشّرًا لا بدّ أن يُشفع بـ "قد".

ويقتضي المنطق أن نفترض أن الإيمان بالله الحقّ وحده لا شريك له، والإسلام إليه هما العقيدة الأولى، التي اعتقدها الإنسان بفطرته، قبل أن يظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ٢١٣: البقرة. وهي عقيدة فطريّة باقية ما بقي الإنسان... ترِثُ وتنبهم، ثم تتجدّد وتتوهّج، في دَور لا ينتهي، على صعيد الإنسانيّة كلّها، تمامًا كما على صعيد النفس الواحدة.

فالتوحيد والإسلام قاسم مشترك بين الرسالات جميعها، والأنبياء لم يزيدوا على ما جاء به أبوهم إبراهيم، بل أبو البشريّة العاقلة آدم في ذلك شيئًا، وكان التوسّع مقصورًا على التشريع، الذي يتعلّق بالمتغيّرات، فكان لكلّ أمّة شِرعة ومنهاج. ومن هنا يمكننا النظر إلى الرسالات على أنّها نماذج من تجديد الدين، الذي هو الإسلام إلى الله وحده، في تاريخ البشريّة...

وبرسالة محمّد بلغت فكرة التوحيد أشُدّها في الأرض، وامتلكت البشريّة المكلَّفة القدرة على حفظها، فلا يهدّدها مهدِّد، من أيّ نوع كان، بالمحو من الذاكرة الإنسانيّة، وكان وراء ذلك التفعيلُ المتزايد للقدرات العقليّة، وما أدّى إليه من تطوّر وسائل الحفظ، وفشوها في المجتمعات البشريّة، وعلى رأس ذلك تطوّر الكتابة وملحقاتها، وبلوغ التواصل البشريّ مرحلة لا يُخشى بعدها تردّيه وتقطُّعه.

ومن هنا كان الإسلام الرسالة النهائيّة للعالمين، ومن هنا قال محمّد ﷺ: «لا نبيّ بعدي»[1]. فبعد رسالة محمّد التي أكملت الدين، وأتمّت نعمة الله على الناس، بات

(١) صحيح البخاري: ٣٢٦٨.

على التجديد أن يضطلع بدور الرسالة، وعلى المجدِّدين أن يلعبوا دور الأنبياء... «إن الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها»[1]. فتجديد الدين عمليّة متواترة مستمرّة، يهيّئ لها الله بين الحين والحين من يقوم بها، ويجاهد فيها، تمامًا كما جاهد الأنبياء والرسل.

*

إن دور النبوّات والرسالات في مسيرة الإنسانيّة يحتاج إلى إحياء، ومن نافلة القول أن ذلك يتطلّب تجاوز الخطاب الدينيّ المطروح، دون أن نغضّ النظر عمّا يمكن الاستفادة به منه، وبلوَرة خطاب يقوم على مباشرة النصّ القرآنيّ، وصحيح قول رسول الله، والاستعانة بما تَوافَق وتآزر، من نتائج الدراسات الآثاريّة، والموثّق من التاريخ، وما يتطلّبه البحث ممّا هو مقطوع بصحّته من سائر العلوم، لنقدّم ملامح من هذه الشخصيّات العظيمة وأعمالها، ونعيد إليها مكان القدوة في الذاكرة الإنسانيّة المضلَّلة.

إن هؤلاء الأفذاذ الذين تَبرز سيرهم وآثارهم، في تضاعيف القرون، الزاخرة بأسماء حملت هاجس الحقّ، وصدعت به، وجمعت العقول والقلوب حوله، لا بدّ أن يكونوا نوعًا من البشر فريدًا، صُنع على عين الحقّ، وأُعدّ لريادة القفزات العريضة في أداء هذه المهمّة.

وتختلف نظرة الشعوب والأمم إلى الأنبياء، فيدعوهم البعض قدّيسين، و يدعوهم البعض الآخر آلهة، وقد يُدعَون مصلحين، وقد تعترف أمّة ببعضهم وتنكر البعض، لجهل أو لغرض، وقد تُنسَب فضائل بعضهم إلى آخر أو آخرين. ولكنّ اثنين لا يختلفان في أنّهم قمم هداة البشريّة إلى الطريق القويم. وسواء أكانوا من الأوّلين أومن الآخِرين، وسواء أكانوا من هذا الشعب أو ذاك، فما علينا منهم إلاّ أن نقتدي ونهتدي.

ولئن تقاربت سيَر الأنبياء والرسل، في المصادر التي تناولتها، عبر العصور، فهي لا تتطابق. وقد حدّدت كتب الأديان السماويّة معالم هذه الشخصيّات، كلّ كتاب بطريقته، وتبعت كلاًّ منها مئاتُ الأسفار، تنقل وتفسّر وتشرح وتحلّل. وبديهيّ أن

---

(١) سنن أبي داود: ٤٢٩١.

الذين جاء ذكرهم في هذه الكتب ليسوا الأنبياء كلّهم، فهم كما قال رسول الله ﷺ: «جمّ غفير»[1]. ورغم تضعيف الحديث فهو يتواءم وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ ٧٨: غافر، ولا تزعم توراة يهود، ولا أناجيل النصارى أنّها أحصت الأنبياء.

وقد كان الكلام في النبوّة، ولا يزال، يثير الجدل، فالإنسان لا يرحّب، وقد لا يتقبّل، أن يَعرض على العقل والمنطق والعلم ما اعتاد أن يحيطه بهالة من القدسيّة، التي يربطها موروثه الثقافيّ بالضبابيّة والغيب غير القابل للعقل، حتى بدت المقدّسات والعقل على طرفي نقيض. ولئن التمسنا العذر في ذلك لأيّ كان فلا يسوغ أن نلتمسه للمسلم، فالإسلام، قرآنًا وسنّة، علم ومنطق، يمحّص الأمور في ذاتها، ويرصد روابطها بالحقائق الأوّليّة، التي يفيء إليها وينضوي في ركابها كلّ ما توصّلت إليه العقول من الحقائق، ثم يرصد موقعها من الحقّ المطلق كما لا يفعل العلم التطبيقيّ. ولئن نُسب إلى أتباع الديانات والاتّجاهات الفكريّة تقديس الرسل والمبشّرين، بل إعطاؤهم صفات خارقة، تجعلهم يرتفعون عن طينة البشر، فقد استطاع سيّد الخلق، كما لم يستطع من قبله أحد، أن يفرض على عرب الجزيرة العربيّة، عندما كان بينهم، أن يفهموا أنّه بشر رسول.

ونحن كمسلمين نؤمن أن ما جاء في كتاب الله من أنباء الرسل هو الحقّ، ولكنّنا في خطاب الآخرين، وأمام هذا الجيل، الذي أصبح يتطلّب خطابًا ذا مواصفات خاصّة، سوف نتوصّل إلى هذه النتيجة بالأدلّة العلميّة، التي يعنو لها العقل السليم كافرًا كان أو مؤمنًا. ويقدّم إلينا الإسلام، عبر الكتاب والسنّة، الإدراكَ الشموليّ لمعنى كلّ من النبوّة والأنبياء، والرسالة والرسل أو المرسَلين، ولدور كلّ منهما، ولصلة الإنسان بهما بعد أن بلغ رشده وأوكله الحقّ إلى نفسه، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ٢٩: الكهف.

يتّسم موضوع النبوّة والأنبياء، في القرآن الكريم، بالتكامل والمنطقيّة، حيث تُصدّق سائر جوانبه بعضها البعض الآخر، وتنسجم وثوابت العقيدة، ولا تُناقض

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية ١٦٤ من سورة النساء.

نتائجَ الأبحاث العلميّة الرديفة، المُجمَع على صحّتها، وذلك على الرغم ممّا ألحقه بها اعتماد المفسّرين على الإسرائيليّات من أطياف الخرافة والأسطورة.

فالنبيّ في القرآن الكريم، بشر أوّلاً، وإنسان قمّة، متفوّق، في جانب أو أكثر من جوانب الحياة، ثانيًا. أمّا كونه بشرًا، فمن حيث أنّه تَسري عليه سائر القوانين التي تَسري على بني جنسه، فهو ليس منعدم الرغبات والغرائز، ولا أثيريًّا أو مَوجيًّا، ولا خارق القوى. ونستطيع أن نقف على ما وقعت فيه كتب اليهود والنصارى من التناقض عندما نسبت ذلك إلى بعض الأنبياء، دون أن تنتبه إلى أنّها أثبتت لهم أنفسهم من صفات البشر ما يناقض دعاواها. وقد أثبت القرآن الكريم بشريّة الرسل ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ٩٣: الإسراء.

وأمّا كون النبيّ إنسانًا متفوّقًا متميّزًا، وصاحب بطولة، أو فتح في ميدان من ميادين الفكر أو الحياة، فمن حيث ما عُرف عن الأنبياء من كونهم مصطفَين أخيارًا، مؤيّدين بقوّة الحقّ المطلق الذي هم رسله إلى بني البشر. والنبيّ متفوّق في جانبه المعنويّ، بما حباه الله من العقل والحكمة، والعصمة من الشرك الناتجة عن احتفاظه بالفطرة الموحِّدة. وهو كذلك متفوّق في جانبه المادّيّ، من حيث براءته من المنفِّرات في خَلقه وحياته الاجتماعيّة، وغير ذلك ممّا لا بدّ من توفُّره لنجاح عمليّة التواصل التي هي عصب الدعوة.

إن الأنبياء أفذاذ من الناس، أوتوا من صفاء الداخل ما جعل بينهم وبين الحقّ المطلق سببًا، فامتلكوا الحكمة في أرقى أشكالها عن طريق الوحي[1]. وشكّل تأثيرُهم في تاريخ الفكر الإنسانيّ قممًا فائقة الشموخ بصورة معجزة خلّدتها. وتقف كلّ قمّة من هذه القمم وراء مرحلة من مراحل تطوّر الحضارة الإنسانيّة على هذه الأرض، أمّا ما جاء به محمّد، ﷺ، فهو القمّة القمّة، التي مثّلت كمال الدين، وتمام النعمة، والرضا بالإسلام دينًا. وذلك هو التبرير لعدم ظهور نبيّ بعده.

وتتضمّن النبوّة عالميّة الفكر، ومن هنا كثرت هجرات الأنبياء، وترحُّل الأفذاذ من الناس وكثرة أسفارهم كجزء من هاجس البحث عن الحقيقة، وهو قاسم مشترك بين

---

(١) يقول عبد الوهاب النجار: "فالنبوة طريق إلى الحكمة مختصر، يختصّ الله به من اصطفاهم من عباده" [قصص الأنبياء ص ٢٩٨]. وانظر علي مبروك: النبوة ص ٥٦ و ٥٨.

العقول المتميّزة. وأمّا إرسال كلّ نبيّ إلى قومه، فمرحلة، سبق في علم علّام الغيوب أنّ الأوضاع سوف تحمِل عليها، فكان حكمًا عامًّا أن النبيّ يُبعث في قومه، ولهم. ونحن لا نستطيع أن نتصوّر أن إدريس مثلاً لم يمارس الدعوة إلى الله في فِلسطين وفي مِصر، وقد وجدنا شاهدًا على دعوة يوسُف بين المِصريّين في بَلاط فِرعَون موسى بعد حوالَي ثلاثة قرون على لسان مؤمن آل فرعون، ولم يقصر موسى دعوته على قومه كما أفاد توجيه بعض النصوص، ولم يصرخ يحيى في البرّيّة من أجل اليهود وحدهم، أمّا عيسى عليه السلام، فلا جدال في عالميّة الفكر الذي كرّسته دعوته، من حيث مخاطبتها إنسانيّة الإنسان، ولكنّ وأدها بعد سنتين لم يُعطها فرصة لتَجاوُز الدائرة التي حصرها فيها أعداء الأنبياء والحقّ الذي جاؤوا به.

وقد كان إبراهيم أبعد الأنبياء نَجعًا باتّجاه العالميّة، ولعلّ هذا بعض ما كان وراء وصفه بأبي الأنبياء، فقد دعا إلى الحنيفيّة السمحة في العراق وفي بلاد الشام، وفي الحِجاز، وفي مِصر[1]، وحملها من بعده ابنه إسماعيل في الحِجاز، فكانت أصل دعوة محمّد المبعوث رحمة للعالمين، نقلها في رسالة الإسلام إلى الناس كافّة. بينما استمرّ الفرع الإسحاقيّ من ذرّيّة إبراهيم منغلقًا على نفسه في الأرض التي تدرّ اللبن والعسل.

الإسلام: الرسالة والرسول

إن صلة رسول الله بسائر الأنبياء والمرسلين صلة قمّة الهرم بسائر إحداثيّاته. وقد حفظ لنا القرآن الكريم، وكتب الحديث[2]، وكثير من الروايات بعضًا من ذكر الأنبياء له، فقد ذكره إدريس، والتقاه موسى كما رجّحنا في قصّته مع العبد الصالح[3]، وبشّر به عيسى عليه السلام.

بلغت النبوّات أوج النضج في محمّد صلى الله عليه وسلم، وجاءه وحي السماء بـ «إقرأ»، فكانت بِكر معجزته الخالدة. وهل من معجزة أكبر من أن تَستخرج ذاتك الحقيقيّة، وتنفض

---

(١) انظر قصة إبراهيم عليه السلام.

(٢) حديث المعراج حيث صلّى بالأنبياء.

(٣) انظر قصة موسى عليه السلام.

عنها ركام العصور المثقَل بالانحرافات والضلالات، وتُباشر الآفاقَ ونفسَك قارئًا، حتى يتبيّن لك أنّه الحقّ؟

لقد كرّس محمّد ﷺ ذاته على مدى نيّف وعقدين من الزمان لكي يُرسي للأمّة المسلمة محَجّة بيضاء، لا يُفضي سالكها إلى ضلال أبدًا... فكيف سارت تلك الأمّة على هذه المحجّة؟

[كان على محمّد ﷺ أن يخاطب الناس على قدر عقولهم، وكان يفعل، وكانت العقول قاعدة أو تكاد، إلاّ ما رحم ربّك، عن مباشرة كتاب الوجود بـ «اقرأ» التي يريد أن يحملها عليها. وكاد يبخع نفسه على آثارهم أن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا، ولكن الله، الذي فرض عليه القرآن، كان يردّه إلى آفاق من الفكر تُعينه على تعليم تلك العقول كيف تقرأ. وكانت مهمّته الأولى أن يَبعث في مَواتها شوقَ القراءة، فقد كانت تمرّ على الآيات مُعرِضة لاهية. وكانت مهمّته الثانية أن تتعلّم الحروف، فقد ألِفت ألاّ ترى في السطور سوى مداد على بياض. وكانت مهمّته الثالثة أن تُدرك أنّها موكّلة بهذه الحروف، وأنّها تستطيع أن تنفُذ عبرها إلى ممالك لا تعرفها، وأن تصنع منها ممالك أخرى. وكانت مهمّته الرابعة أن يجعلها تفعّل الصلة بين القراءة والحياة، وتعيش ما تقرؤه واقعًا. وما تزال الإنسانيّة حتى يومنا تستشكل هذه الصلة، وتحاول القفز فوق الحواجز العتيدة، التي تفصل بين الفكر والفعل، دون أن تمارس عمليًّا إلغاءها ونسفها، إلاّ ما رحم ربّك.

وكان التلاميذ النجباء نُدرة... كانوا أولي الأيدي والأبصار، وكانت الكثرةُ الكاثرة أولئك الطيّبين، الذين أدركوا باستفتاء قلوبهم أن ما يقودهم إليه رسول الله هو الحقّ، فانضَوَوا تحت لوائه مسلِمين ومسلِّمين، وقد هداهم إخلاصهم للحقّ الذي جاء به إلى كوّة بينهم وبين ما أراد أن يبلّغهم إيّاه. أما القلّةُ التي بين هؤلاء وهؤلاء فقد سقطت من كلّ حساب، حيث لا مكان بين هذه المقامات لمن لا يد ولا بصر ولا قلب له.

ومن هنا، وكما في كلّ عصر، وفي كلّ مكان، وفي كلّ شأن، كان الحكم للكثرة الكاثرة، فطغت أحكام ذوي القلوب على أحكام ذوي الأيدي والأبصار، وصُوِّر ما هدت إليه «اقرأ» محمّدًا على أنّه مُعجز للعقل، وغير معجز للقلب، ذلك أن القلب المؤمن يستطيع أن يردّ كلّ شيء إلى نقطة واحدة هي الذات الإلهيّة، ويقعد طاعمًا

كاسيًا، وهو قطعًا غير مخطئ في ذلك، ولاسيّما إذا لم تكن لديه أدواته، ولكنّ هنالك طريقًا لا بدّ من قطعها، وهي طريق على هذه الأرض، ولا تنفع الأجنحة في ذلك][1].

لقد اختلط في العقول أمر معجزة محمّد التي تحمل هذا المفهوم بالسحر الذي كان، فكانوا يفهمونها كما لو كانت منه، ونراهم في سورة الإسراء يطالبونه بإتيان الخوارق، كما لو كان ساحرًا: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ ٩٠ - ٩٣: الإسراء... وبلغت به الدهشة والصدمة أن قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ ٩٣: الإسراء! وفي هذه الإجابة عبرة أيّة عبرة... ولكن لأُولي الألباب.

إن العقول التي طالما أخمدت صوتها تلك الكثرة هي الرجاء اليوم، على أن تكون مرشِدة، لا منتقِمة لدهر من الاضطهاد، ولا مناوئة ولا معادية. فمهمّة العقل قيادة القلب والعطف عليه والاسترواح به، أمّا أن يبلغ الاتّحاد به، فتلك سمة الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ومن رافقهم فحسن برفقتهم.

الغيب

جاء في تفسير البَيضاويّ: الغيب هو الأمر الخفيّ الذي لا يدركه الحسّ، ولا يقتضيه بديهةُ العقل، وهو قسمان: قسم لا دليل عليه، لا عقليّ ولا سمعيّ، وهذا هو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ ٥٩: الأنعام، وقسم نُصب عليه دليل عقليّ أو سمعيّ، كالصانع وصفاته، واليوم الآخر وأحواله، وهو المراد بالغيب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ٣: البقرة.

فالغيب ليس صفة ذاتيّة في أشياء وأمور بأعيانها، بل هو كلّ ما لا سبيل لك إلى إدراكه بحواسّك، وما هو غيب بالنسبة إليك قد يكون مشاهدة بالنسبة إليّ، وما هو

---

(١) من بحث «الحق المطلق» للكاتبة.

غيب اليوم قد يكون مشاهدة غدًا[1].

وأمّا عدم اقتضاء العقل إيّاه بديهة فلعلّه يحتاج إلى شيء من بيان، فالصانع وصفاته، واليوم الآخر وأحواله[2]، ممّا رُكز الإيمان به في أصل فطرة الإنسان العاقل، أي أنّه يُدرَك بمجرّد كون الإنسان عاقلاً، تهديه إليه البديهة النقيّة، وبأدنى تدبّر. ومن هنا كان القول المشهور: البعرة تدلّ على البعير، والأثر يدلّ على المسير. أفلا يدلّ الكون على الصانع القدير؟ ومن هنا توصّل حَيّ بن يَقظان بالفطرة الحقّ إلى الإيمان الكامل.

ومن الغيب، غيبِ السماوات والأرض، ما لا تعلُّق له بالبشر، وهذا مفاتحه عند الله، أي لا يعلمه غيره، ومنه ماله تعلّق بهم، وهذا، وإن كانوا لا يدركونه بحواسّهم، توصلهم عقولهم إلى الإيمان به، إمّا بداهة كأوّليّات العقيدة، أو لما جاء عنه من خبر السماء.

وتستعمل كلمة الغيب مجازًا في كثير من المواضع في الذكر الحكيم، ولكنّ هنالك قاسمًا مشتركًا بين أوجه استعمالاتها، وهو الغاية البعيدة الرامية إلى إبراز كون الإنسان[3] محكومًا بالقصور، من حيث ارتباط علمه بمعطيات حواسّه، في مقابل الإطلاق في علم علاّم الغيوب، اللهِ الذي عنده مفاتح الغيب، ويعلم السرّ والجهر.

الوحي

الوحي في اللغة الإعلام في خفاء. وكلّ ما دلَلت به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة فهو وحي. والوحي، في اصطلاح أهل الشريعة، هو كلام الله تعالى المنزّل على نبيّ من أنبيائه. وتلك حالة اختراق غير عادي لمحدوديّة الإنسان، يمسّ فيه شيئًا من المطلق.

وليس الإيحاء أو الوحي خاصًّا بمن أُوحي إليهم بنصّ القرآن الكريم من الأنبياء،

---

(١) انظر قصة سليمان عليه السلام.

(٢) وهو ما جاء به كمثل على ما نُصب عليه دليل عقلي أو سمعيّ.

(٣) بما في ذلك الأنبياء.

فقد أوحي إلى أمّ موسى ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ ٧: القصص، وإلى الحواريّين ﴿أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ ١١١: المائدة، وإلى الأسباط ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ ١٦٣: النساء، وإلى الملائكة ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ ١٢: الأنفال، وهذا النوع من الوحي إلهام رفيع يهدي إلى عين الحقّ. كما أوحي إلى السماوات ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ ١٢: فصلت، وإلى النحل ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ ٦٨: النحل، وهذا النوع من الوحي يعني ما قضاه الله الحقّ في مخلوقاته ممّا لا يد لها فيه كالغريزة في الحيوان، والقوانين في الكون.

يقول سيّد قطب في الوحي إلى النحل: والنحل تعمل بإلهام من الفطرة، التي أودعها إيّاها الخالق، فهو لون من الوحي تعمل بمقتضاه. أمّا عن الوحي إلى أمّ موسى فيقول: هنا تتدخّل يد القدرة، فتتّصل بالأمّ الوجلة القلقة المذعورة، وتلقي في روعها كيف تعمل، وتوحي إليها بالتصرّف[1].

ويمكن التمييز بين مراحل ثلاث في تاريخ الأديان، الأولى من آدم إلى نوح، والثانية من نوح إلى إبراهيم، والثالثة من إبراهيم إلى محمّد ﷺ. وذلك بحسب طريقة الوحي إلى كلّ منهم. فقد أوحى الله إلى من سبق نوحًا عن طريق رجل يكلّم النبيّ مباشرة، ينقل إليه رسالات السماء. وبسيّدنا نوح ظهر الوحي عن طريق ملَك موكّل بذلك الأمر، وهو جبريل عليه السلام[2].

وتناوب الشكلان فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام، كما نرى في النصّ القرآنيّ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ ١٠٥: الشعراء[3]. وفي ضيف إبراهيم المكرمين. ثم ساد الشكل الثاني سيادة شبه كاملة، إلاّ فيما ندر، ومن ذلك ما روي من أن جبريل أتى رسول الله ﷺ على صورة رجل[4].

والوحي أو خبر السماء واحد من طرق العلم، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها

---

(١) انظر «في ظلال القرآن» تفسير الآية ٣٨ من سورة النحل.

(٢) وهذا مصداق كون نمو العقل البشري يتمثل في تنامي قدرته على التجريد.

(٣) يقول سيد قطب: وقوم نوح لم يكذبوا إلا نوحًا... فالرسالة في أصلها واحدة... فمن كذب بها فقد كذب بالمرسلين أجمعين. في ظلال القرآن. تفسير الآية ١٠٥ من سورة الشعراء.

(٤) صحيح البخاري: ٥٠.

ولا من خلفها، فهو صحيح مطلقًا، ولئن قال ابن تيميّة إن الأنبياء «قد يعلمون بالخبر ما لا يُعلَم إلاّ بالخبر»[1]، فهم يعلمون ما لا يُعلَم إلاّ به، لأن مصدره الحقّ المطلق الذي يملك الأنبياء إليه دون سائر البشر سبيلاً.

المُعجزة

ليس لنا أن ننسى أن للمعجزة دورًا محدّدًا في دعوات الأنبياء والرسل هو إقناع المكذّبين بأنّهم مبعوثون من الله بما يدعون إليه. وليس لنا أن نصوّرهم حواة أو سحرة، يحترفون الإبهار بما يأتون من العجائب. وذلك بإلقاء عباءة المعجزة على كلّ تصرّف يأتونه، ونسج القصص حول كلّ عمل فذّ، أو غير مسبوق يقوم أحدهم به. واقتسار كل آية من آيات الله على التمخّض عن خارقة مبهرة، رغم قوله عزّ وجلّ: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ ٩٣: النمل.

وقد بدأت المشكلة عندما استهوى عنصر الإبهار، بما فيه من خاصّيّة الجذب، القصّاصين والرواة، فجعلوا ينقّبون في قصّة كلّ نبيّ عمّا يمكن أن يُلبسوه ثوب المعجزة، ووجدوا في توراة اليهود، وحكايات أهل الكتاب ضالّتهم المنشودة، فكان أن مُعجِزَت معظم تصرّفات الأنبياء[2]، وذلك بإضافات، أو تحويرات، أو تأويلات لم تلبث أن أخذت سبيلها إلى التفاسير، فلصقت بالنصوص العظيمة، واكتسبت من قدسيّتها قدسيّة، فابتعدت بها عن الكثير من مراميها. وكان ذلك من الضلال البعيد. كما سعوا إلى آية بيّنة وكلّ برهان فأدخلوا ذلك كلّه في زمرة المعجزات[3]. وما كلّه ممّا يصلح لذلك، فما كلّ دليل على قدرة الله ممّا يُعجز العقل، وليس الأصل أن يؤمن الناس لعجز عقولهم، بل الأرفع والأعلى درجة أن يتوصلوا باستقراء الآيات بتلك العقول إلى الإيمان.

وتثير مُعجزات الأنبياء كثيرًا من الجدَل بين المنكِرين لها من غير المؤمنين، وبين المؤمنين الذين يتفاوت مفهوم المُعجزة فيما بينهم، فقد قيل في المُعجزة: المُعجزة

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ١: ١٧٨.

(٢) مَعجَز الأمرَ: زعم أنه معجزة.

(٣) انظر عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء ٢٤٧ ـ ٢٤٩. وهو في طبعة دار إحياء التراث العربي دون غيرها من الطبعات.

أمر خارق للعادة، يظهر على يد مدّعي النبوّة موافقًا لدعواه، وتكون مقرونة بالتحدّي مع عدم قدرة أحد على معارضتها، أي الإتيان بمثلها. وقيل إنّها جزء من قدرة الخالق، يُجريها على يد من يشاء من عباده.

ومن الأقوال في المُعجزة أنّها تعني أن يغيّر الله إذنه في شيء أو أمر[1]، فيبطله ويُحلّ غيره محلّه، ومن ذلك إبطال قانون الإحراق في نار إبراهيم ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ٦٩: الأنبياء. ولعلّ هذا قياس على ما نُسخ من أحكام، وبدّل من آيات مكان آيات في كتاب الله العظيم.

إن هناك المعجزة، وقد حُدّدت ووُصفت، وهناك فرادة النبيّ، وتميّزه، وريادته، فالنبيّ حُكمًا رجل متفوّقٌ فذّ في ميادين عديدة، القاسم المشترك فيها قوّة الروح، والقدرة على النفوذ من محدوديّة البشر إلى آفاق المطلق، بما يتلقّى من الوحي، وذلك في خروقات لهذه المحدوديّة تضيق وتتّسع من نبيّ إلى نبيّ. كما يختصّ كلّ نبيّ أو يكاد بناحية معيّنة، أطلق عليها صاحب القصص اسم البطولة.

[والمُعجزة أدنى إلى أن تكون من اللاّمعقول[2]، من حيث كونها لا تملك صفة الثبات، وليست خارقة لأمر الله في خلقه. وأمره في خلقه سنّة لا تتحوّل ولن تتبدّل، ولا يجوز القول بخرقها، وعلينا أن نفسّر كلّ ما يبدو لنا خرقًا انطلاقًا من ثباتها. ولا يجوز الاستثناء، فإنّما هي كلمة كانت منذ خَلق الله السماوات والأرض ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ ١٢: فصلت، ولا مبدّل لكلماته. وفي هذا المفهوم لا تكون المعجزة بتدخّل مباشر من الله في الأمر، بل بما أودع في هذا الإنسان النبيّ المُصطفى من قدرة معجزة على إدراك قوانين الله في الأشياء[3]. ويكون ذلك قفزة فائقة، وغير عاديّة، تخرق سياق التطوّر الإنسانيّ العاديّ. والحقّ أن الإعجاز يكمن في هذه القفزة التي تخرق ما اعتاده البشر، وتلك المعجزة المشتركة بين الأنبياء جميعًا][4].

---

(١) والإذن ما ركبه الله في الأشياء من طبائع.

(٢) وهو حال من أحوال النظر في الأمور والأشياء. إذ المعقول هو ما يجمعه العقل، وقد يجمع العقل اليوم ما لم يكن يجمعه بالأمس، فيكون ما هو لا معقول بالأمس معقولاً اليوم.

(٣) يعجز عنها محيطه على الأقلّ، وفي زمانه على الأقلّ.

(٤) من بحث «الحق المطلق» للكاتبة.

إن التفوّق النبويّ سبْق هائل، وكلّ ما يأتي به السابق نبأ أو نبوءة، بالنسبة إلى مَن وراءه، وبالتالي فهو خارق لما اعتادوه، أو لِما جرت به عادة الأمور في عرفهم. يؤيّد هذا كثير من الإشارات العفويّة إلى فهم في أعماق العقل لهذه المقولة. ومن ذلك ما قاله ابن عبّاس عن النُّورة، التي قيل إن الجنّ صنعتها لِبلقيسَ: «فإنّه لأوّل يوم رؤيت فيه النُّورة»[1].

وبهذا المفهوم للمعجزة يفقد القول: إن الله يغيّر قوانين الأشياء، أو ينسخها بأخرى، وجاهته، حيث تتمّ المعجزة بدون ذلك التغيير أو النسخ. وتظلّ المُعجزة تُعجز الناس أن يأتوا بمثلها، حتى يأذن الله أن يُفضي التطوّر إلى إدراك ما وراءها، فمن أمر الله في العقل[2]، أنّه يتطوّر حتى يكشف من أمر الله الثابت في الكون كلّ ما يقدر على كشفه[3]، ولذلك أبطل الله المُعجزات الماديّة، وجعل للرسالة الأخيرة مُعجزةَ صُنعِ العقل الرشيد، الذي أذن الله له أن ينفذ من أقطار السمٰوات والأرض بسلطان أحرى به أن يكون العلم، الذي أتاحه الله للإنسان بما نفخه فيه من روحه.

لقد وقف الكثيرون على معجزة نقل عرش بِلقيسَ في قصّة سُلَيمانَ طويلاً، واختلفت سبل الباحثين عن حقيقة الأمر، وكانت للعلم في ذلك كلمة، لعلّها أكثر الكلمات إقناعًا[4]. فإلى عقود قليلة كان أمرًا خارقًا أن يرى الإنسان ما ليس في مجال رؤيته المعروف، أمّا اليوم فالرؤية لا علاقة لها بالحواجز والمسافات، ويستطيع الإنسان أن يرى العالم كلّه من موقعه الذي هو فيه، كما أن أجهزة الرصد والتنصُّت، ولاسيّما الأقمار الصناعيّة، تحقّق لكلّ إنسان رؤية تكاد تكون شاملة لسطح الأرض كلّه. وهذا يذكّرنا برقابة الملائكة، التي يصدّق بها المؤمنون لأنّها من خبر السماء،

(١) انظر الدر المنثور: تفسير الآية ٤٤ من سورة النمل. والنورة حجر يطفأ بالماء، ويطلى به الشعر في مناطق معينة من الجسم فيسقط.

(٢) أي قانونه الذي أودعه فيه.

(٣) أي أنه لا يبلغ أبدًا أن يكشف كلّ شيء، أو أن يحيط بكلّ شيء عن أمر اكتشفه، لأنّ ذلك خاصّ بالله الذي أحاط بكلّ شيء علمًا.

(٤) انظر التعليق على نقل العرش في قصّة سليمان عليه السلام.

ويكذّب بها غير المؤمنين لأنّهم لا يرون تطبيقًا لها بأعين رؤوسهم. ولعلّ تلك الأجهزة، لو كانت في زمان إبراهيمَ، لكانت ممّا يُطمئن قلبه عليه السلام. ولو أن المسلمين تحرَّوا أمثال هذه الروابط لاطمأنّت قلوب كثيرة بالإيمان، ولصدّقت قلوب لا تحتاج إلاّ إلى الاطمئنان لتصدّق.

ولا نقول بأن الملائكة يرون بالآليّة التي نرى بها اليوم بواسطة الأقمار الصناعيّة، ولكنّ الرؤية بواسطة الأقمار الصناعيّة بعض ممّا أوحاه الله في هذا الكون من أمر، وهي ممّا يجعل القلوب الإبراهيميّة الرشيدة تطمئنّ إلى إمكانيّة رقابة الملائكة. ولعلّ الذي عنده علم من الكتاب قد اهتدى إلى شيء من مبادئ تلك الرؤية، فاطّلع إلى عرش ملكة سبأ حيث هو، ونقل الصورة بدقّة العالِم المحقِّق إلى عمّال سليمان المهرة، فكانت نسخة عن العرش كأنّها هو.

ولعلّ الذي عنده علم من الكتاب قد اهتدى إلى ما يفوق تلك الرؤية بمعزل عن تقنيّتها المعاصرة المعقّدة، والتي تبدو للناظر بعين متفحّصة قيودًا تعرقل فعاليّات الإنسان. وسوف ينتهي العلم بالبشريّة، إلى تسخير الكثير من فعاليّات الكون، بتقنيّات غاية في البساطة، كتوجيه الطاقة بحركة بسيطة، أو تغيير التركيب الكيميائيّ لبعض الموادّ، أو خلخلة الضغط في مكان بعينه للتحكم في اتّجاه الريح[1].

إنّه العلم ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ٨٥: الإسراء. والمقرَّر للعلم اليوم أن يصل بالإنسان إلى السيطرة الكاملة على الكون، وتسخيره لأغراضه بإذن من الله الحقّ... وذلك قبل أن يبلغ الكتاب أجله، ويرث الله الأرض ومن عليها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ٢٤: يونس.

إن هذا الإنسان معبّأ بطاقات هائلة لم يكتشف منها إلاّ النزر اليسير، وبتهيئة نفسيّة، وبخطاب من زاوية غير الزوايا المعتادة، ليس من الغريب أن يرى الإنسان ببصره ما لم يكن يراه. وقد كان النبيّ ﷺ يرى ما خلفه مثلما يرى ما أمامه. ولعلّ ما يُدعى بالكرامات من هذا القبيل. فالمسمَّون بأصحاب الكرامات أناس استطاعوا السيطرة على بعض القوانين الطبيعيّة بالاهتداء، أو باختيار زاوية اقتحام تُناسب أدواتهم واستعداداتهم، وهو أمر لا يرفضه العلم، بل هو أمر علميّ.

---

(١) انظر تسخير الريح في قصة سليمان عليه السلام.

فالمُعجزة قضاء حقّ، وهو لا يَخرق، في واقع الأمر، قوانين الحقّ، ولكنّ ربطه بأسبابه يكون خافيًا عن العقول ساعة وقوعه، وقد يبقى كذلك قرونًا، ثم يُكشف بما يهدي الله العقل الإنسانيّ إليه، وقد لا يُكشف قبل أن يرث الله الأرض ومن عليها، فيبقى غيبًا مكنونًا.

الصحيفة والكتاب

الكتاب من الكَتْب، وهو الجمع. فالكتاب اسم لما كُتب أي جُمع، وهو المكتوب، أي المجموع. والكتاب في اللغة أيضًا الحُكم والفرض والقضاء. وهذه المعاني حاضرة كلّها في كلمة «كتاب»، يقدَّم بعضها، ويؤخَّر البعض الآخر حسب استعمال الكلمة.

و«الصحيفة بمعنى كتاب، وفي العرف هي الكتاب الصغير»[1]، وفي الحديث أن أبا ذَرّ الغِفاريّ سأل رسول الله ﷺ عن الكتب المنزَّلة من عند الله تعالى، فأجابه إنها «مائة كتاب وأربعة كتب. أُنزل على شِيث خمسون صحيفة، وأُنزل على أخنوخ ثلاثون صحيفة، وأُنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأُنزل على موسى قبل التوراة عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والقرآن»[2].

وكلمة «كتاب» على إطلاقها، تعني أمر الله النافذ في كلّ شيء وفي كلّ شأن. ومنه: سبَق الكتاب، أي أن حُكم الله القديم في الأمر أن يقع على هذا الوجه، فهو واقع عليه لا مَحالة. وفي اللغة الدارجة يقال: «المكتوب» للدلالة على الأمر الحتميّ الذي قضى به الله، أي أن الله قضى بوقوعه مسبقًا، فهو واقع لا مَحالة. ومن هنا قيل إن أصل الكتاب هو اللوح المحفوظ.

وكتاب الله هو ما تنزّل به الروح الأمين على قلب محمّد ﷺ. وكلّ ما أوحى به الله إلى الأنبياء، فنطقوا به، بشكل مقولات صالحة للجمع والتثبيت بالكتابة المعروفة، كُتبٌ من عند الله. ومن هنا دعي اليهود والنصارى أهل الكتاب. والكتب السماويّة المعروفة هي التوراة والإنجيل والزبور والقرآن.

---

(١) التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: الصحيفة.

(٢) صحيح ابن حبان ٢: ٧٧.

والكتابة بهذا المفهوم واحد من أشكال التعبير التي عملت متساندة كوسيلة للتواصل بين بني الإنسان. فبعد أن بلغت اللغة المنطوقة أشُدها بتعلّم آدم الأسماء كلّها، جاء الخطّ بالقلم، فكان رموزًا وعلامات بصريّة تعبّر عن الأصوات التي تشكّل اللغة المنطوقة. «وفي رواية: أنّ آدم عليه السلام كان يرسم الخطوط بالبنان، وكان أولاده تتلقّاها بوصيّة منه، وبعضهم بالقوّة القدسيّة، القابليّة القلبيّة»[1].

* * *

(١) مقدمة كشف الظنون ص ٢٥. وانظر قصة آدم عليه السلام.

الفصل الثاني

في الإسرائيليات

ما ينبغي البدء به، في الكلام عن الإسرائيليّات، أن كلمتي التوراة والإنجيل حيثما وردتا في القرآن الكريم إنّما تعنيان حقيقة ما نزل على كلّ من موسى وعيسى عليهما السلام، لا ما أصبح معروفًا بعد مَجمع نِيقية ٣٢٥ م بالكتاب المقدّس، وهو كتاب ضخم يجمع توراة اليهود وأناجيل النصارى[١]. أمّا توراة اليهود، فأسفار كتبها أحبارهم في ظروف سياسيّة واجتماعيّة فرضت توجُّهات معيّنة، وأمّا أناجيل النصارى، فهي مدوَّنات أربع تحتوي أخبار المسيح عليه السلام، ويُنسب كلّ منها إلى واحد من تلاميذه، لم يثبت أن بينهم من عاصره. ولا يصحّ اعتبار الأناجيل نسخًا عن أصل واحد، لأن فيها اختلافات لا تسمح بهذا الاعتبار. وقد جاء في دائرة المعارف الفرنسيّة، وبعض الآراء غير المتعصّبة: الأناجيل لا يُعرف متى كتبت، ولا بأية لغة ألّفت. وقال بعضهم: إن مؤلّفيها غير معروفين، واتّهم البعض الآخر بُولُس بوضع أكثرها[٢].

ولكنّ عُجالة كهذه قد لا تبدو كافية لتبرير القول بوجوب نبذ الإسرائيليّات في التفسير، والتصدّي لما تلوّث بها منه، وتجلية دوره فيما تعرّض له الفكر الإسلاميّ والحياة الإسلاميّة من أدواء، حصدنا نتائجها، ولمّا نزل.

اليهود وتوراة اليهود

إن أولئك الذين صنعوا بفكرهم وبمُعطيات واقعهم ما سمّوه بالتوراة، ليسوا أبناء يعقوب، أو إسرائيل كما يدعونه، أي ليسوا بني إسرائيل الذين حدّثنا عنهم القرآن الكريم، في قصّة يوسُف، ولا مبرّر للاعتقاد أن هؤلاء، ومن سار على نهجهم ممّن غلب عليهم اسم اليهود، سلالةُ مَن هادوا إلى الله من أصحاب موسى الذين خرجوا معه من مصر، أي الذين قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ ١٥٦: الأعراف، وإن كان المسلمون

---

(١) معروف أن هذا الجمع كان في الحقيقة غير المعلَنة خدمة لأغراض اليهود. وسوف يأتي تفصيل ذلك.

(٢) عن دائرة المعارف الإسلاميّة: إنجيل.

قد اعتبروا الجذر اللغويّ المشترك بين الكلمتين دليلاً على ذلك. بل لا مبرّر لاعتبار الذين هادوا إلى الله مع موسى من أبناء يعقوب دون غيرهم من الخارجين معه، ذلك أن الذين خرجوا مع موسى لم يكونوا أبناء يعقوب وذراريهم فقط، بل كان فيهم من هو من غيرهم، وقد دعاهم القرآن الكريم بأصحاب موسى ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ ٦١: الشعراء. وقد أشار بعض المفسّرين إلى ذلك، ومنهم أبو حيّان في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ ٢٣: الدخان، حيث قال: «وهم بنو إسرائيل ومن آمن به من القبط»[1].

ولقد أخرج الله الحقّ السائرين على نهج كتبة التوراة، كائنًا ما كان انتماؤهم العرقيّ، من نطاق أبناء يعقوب، أي بني إسرائيل، حين خاطب يهودَ المدينة، بقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ١٣٣ و١٣٤: البقرة.

ثم أخرجهم من زمرة الأسباط أيضًا، والأسباط، كما هو راجح، البطون الأولى التي انحدرت من أحفاد يعقوب ومن أبنائهم، ولعلّ كثرة الأنبياء فيهم سبب إدراجهم في عداد الأنبياء في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ١٣٦: البقرة، ويتابع الذكر الحكيم توكيد ذلك المعنى، بالنصّ صراحة على أن كلّ الذين ذُكروا من إبراهيم إلى الأسباط ليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء منهم: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ١٤٠و١٤١: البقرة.

وإذا كان السياق يرجّح أن الصلة هنا تخصّ العقيدة، فليس ثمّة ما يمنع من سحبها على الصلة العرقيّة، ولا سيّما أن اليهود يدّعون صفاء العرق وصراحة النسب إلى

(١) البحر المحيط تفسير الآية.

يعقوب عليه السلام[1]، وأن علم السكان ونتائج الدراسات الآثاريّة تؤيّد ما نذهب إليه[2]. ونقرأ في إنجيل يوحنّا قول المسيح لهؤلاء: «لو كنتم أبناء إبراهيم لعملتم بعمل إبراهيم»[3] وسوف نتعرّض لذلك في مواضعه من القصص إن شاء الله.

ممّا تقدّم يغلب على الظنّ أن كتبة التوراة ومن اعتمدوا توراتهم لا علاقة لهم ببني إسرائيل، أي أبناء يعقوب، ولكنّهم التحفوا هذا الاسم في عصور لاحقة لغاياتهم، وكرّسوه في المدوّنات التي زعموا أنّها توراة موسى. كما نستنتج أنّهم ليسوا الذين هادوا إلى الله مع موسى، ولكنّ اعتماد اسم بني إسرائيل في الكتابات العبريّة، وبالتالي في كتابات الأمم التي أخذت عنها[4]، أدخله في النصوص، وفرضه على العقول.

*

لقد سيق جمهور الذين نزلوا أرض فلسطين ممّن يُدعَون بني إسرائيل إلى بابِل فيما عُرف بالسبي، وسيموا الخسف والهوان شأن رقيق تلك العصور في سائر المعمورة، ممّا أحيا في ذواكرهم حكايات الآباء والأجداد المأساويّة عن ظلم المصريّين، وعذاب التشرّد في الصحارى وراء حلم الأرض التي تدرّ لبنًا وعسلاً، والمَقاتل التي حصدت منهم ما حصدت على مداخل المدن الشاميّة والفلسطينيّة، حتى استطاعوا أن يثبّتوا أقدامهم، ويصنعوا لهم كيانًا سياسيًّا أشبه بالحكم المحلّيّ في المحيط الكنعانيّ، الذي كان محكومًا بقوًى كبيرة محلّيّة وغازية ومستعمِرة[5].

على هذه الأرضيّة الفكريّة والشعوريّة، وبين دفّتي ما زعموا أنّها التوراة، بدأ كتبة اليهود صنع إسرائيل الحلم، أخذوا صكّ ملكيّتها مباشرة من الله، وابتدعوا لها شعبًا

---

(١) انظر قصة موسى عليه السلام: النموذج الإسرائيليّ في القرآن الكريم. وإن دراسة لتطور دلالة كل من عبارتي "بني إسرائيل، وأهل الكتاب"، وكلمة "يهود"، في القرآن الكريم، سوف تأتي بنتائج ثمينة، ترفد البحث في هذا الميدان.

(٢) انظر قصة موسى عليه السلام.

(٣) الإصحاح: ٨.

(٤) ومعروف أن كتابات اليهود، وعلى رأسها توراتهم، كانت إلى عهد قريب، المصدر الأكثر وردًا، لكلّ ذي قلم. ويحتاج هذا إلى بحث أوسع، وأكثر تقصّيًا للجزم بالنتائج.

(٥) انظر قصّتي موسى وداود عليهما السلام.

هو شعب الله، واخترعوا تاريخًا أسطوريًّا عجائبيًا هو مزيج ممّا تكتنزه الذواكر من تراث المنطقة الفكريّ[1]، وأحداث التاريخ، وتداعيات الواقع، وأحلام المستقبل الملوّنة التي تملأ ليالي الأسرى والسجناء. كلّ ذلك برؤية دونكيشوتيّة، صوّرت بلاد الشام وفلسطين، بكلّ ما كانت تعجّ به من أحداث وأقوام، ساحة لملاحم اليهود وانتصاراتهم الخرافيّة، وممالكهم العظيمة. وجعلتهم جحافل جرّارة، تدخل أرض الآباء التي ورّثها إيّاها الربّ دخول الفاتحين[2]. وسرعان ما نراها تقتحم المدن والممالك، وتدمّرها شرّ تدمير، ثم لا تلبث أن تقيم مملكة عظمى تخوض حروبًا أسطوريّة، وتحرز انتصارات خرافيّة.

وقد يتصوّر المرء أن التوراة المزعومة، التي ولدت في تلك الظروف، قد كُرِّست واحتُفِظ بها كأقدم وثيقة مُتاحة، ولكنّ الواقع يُبرز لنا محطّة، خضعت فيها تلك التوراة إلى عاصفة من التغيير، تمخّضت عمّا دُعي بالكتاب المقدّس، الذي جمع توراة اليهود تلك، والأناجيل التي ارتضاها رسميًّا التحالف النصرانيّ اليهوديّ، وفعليًّا اليهود.

ومرّة أخرى قد يتصوّر المرء أن النصوص قد ثبتت نهائيًّا، ولاسيّما أن الكتابة قد انتشرت، وتطوّرت أدواتها، والتواصل بين أصقاع الأرض قد ازداد. ولكنّ مبعث محمّد في جزيرة العرب، فضح الكثير ممّا طُمس، وجاء بالكثير ممّا لم يَحتط له أصحاب التوراة، فكان لا بدّ من حفظ ماء الوجه. بيد أن زمان التزوير كان قد ولّى، لانتشار النسخ المكتوبة من توراة اليهود في الأمصار، ولانتشار الإسلام الفضّاح في سائر أرجاء المعمورة.

من هذا الواقع بدأ تحايل من نوع آخر، فكانت هنالك شروح وتعليقات وكتب أُضفيَت عليها صفة القداسة، كالتلمود الذي أباح لليهود أموال الشعوب ودماءها

---

(١) وهو ما لفت كثيرًا من الباحثين والدارسين، فكانت كتب على غرار «التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير» ليو تكسل، و«أباطيل التوراة» لمحمد علي البار، و«فضح التلمود» للأب أ. ب برانينس، و«التوراة» لمصطفى محمود...

(٢) وكانت مستعمرات مصرية آنذاك.

وأعراضها، وقاموس الكتاب المقدّس الذي تلاعب بأسماء الأماكن ومدلولاتها، لتكون في خدمة الأهداف اليهوديّة. كما كانت هنالك الترجمات التي تصرّفت في النصوص، مستغلّة ما تسمح به عمليّة الترجمة من الدسّ، لتضع لكلّ كلمة لا ترضى عنها ترجمةً ترضى عنها، تثبتها في الطبعات الجديدة لتنسخ ما قبلها من الذواكر شيئًا فشيئًا.

وقد لخّص الذكر الحكيم صنيع هؤلاء كما نراه في توراتهم بقوله جلّ وعلا: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ ٧١: آل عمران؟ وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ ٧٨: آل عمران. فهم لم يلبسوا الحقّ بالباطل لضياع التوراة كما يحتجّ لهم البعض، بل يكتمون الحقّ وهم يعلمون، ولا فضل لهم فيما تسرّب من الحقّ إلى توراتهم، فإن هو إلاّ تصديق قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ٢١: يوسف.

التلوّث التوراتيّ

كان أحبار اليهود شرذمة من المنظِّرين في محيط من أصحاب السيوف والتيجان، وكانت مطامع هؤلاء تتقاذفهم في كلّ الاتّجاهات، فانكفؤوا على قراطيسهم، ومحَوا وكتبوا ما شاء لهم انفرادهم بالأقلام... صنعوا ممالك وشعوبًا وحروبًا وأنبياء وأشقياء وقادة، ورفعوا، في دنيا الخيال، ذواتهم التي هبطت بها دنيا الواقع. واستمرأ اليهود هذا الصيد الخبيث لخلوّ الساحة ممّن يقرؤون، وكانت عبارة «العرب لايقرؤون» آخر ترجمة لمنهجهم هذا.

إن الذين تولّوا كِبر هذا التخريب والإضلال والكذب ليسوا أمّة، ولا شعبًا، ولا دولة، ، وليسوا أهل التوراة، ولا أهل الإنجيل، وما التوراة والإنجيل عندهم إلاّ وسيلة اتّخذوها للإفساد في الأرض، وتزوير الحقائق، وتشويه التاريخ، كما اتّخذ نظراؤهم من المحسوبين على الإسلام كتاب الله سلّمًا إلى مآربهم... إنّهم المفسدون في الأرض... ممثلو الباطل في كلّ زمان ومكان، الذين ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ﴾ ١٦٧: الأعراف.

وبديهيّ أن هذا الذي ذُكر لا يخصّ الذين هادوا إلى الله مع موسى، ولا الذين آمنوا مع عيسى من بني إسرائيل، كما أنّه لا يخصّ جميع من يُدعَون اليوم بالشعب الإسرائيليّ، فلهؤلاء شأن آخر، يعرفه المخلصون للحقيقة منهم ومن غيرهم، الباحثون عنها من أجلها، ومن أجلها وحدها.

ونشير هنا إلى هذا التلوّث في بعض المواطن ذات الصلة ببحثنا:

أ ـ في التاريخ

بقيت مدوّنات اليهود هذه طويلاً المرجع الأوّل في التاريخ، فعندما بدأت طلائع الرشد تشارف المحيط، وأنشأ القلم يزاحم السيف في الحضور والتأثير، وجد تلك المدوَّنات وردًا مهيّأً لمن يريد الوقوف على ما كان. وهكذا كانت توراة اليهود، رغم كلّ الشواهد على ما فيها من خرافة وصنع وكذب، النافذة شبه الوحيدة على الماضي المجهول، الذي يبحث عنه الباحثون.

وفي سبيل الإبقاء على هيمنة الفكر الذي تكرّسه هذه النصوص، نُسف كثير ممّا يُناقضها من أسفار التاريخ في العالم أو هُمّش، وقضي على كثير من أصوله، أو اخترقته نصوصها، فخلا لها الجوّ تبيض وتصفر. وظلّت المادّة الأمّ للتاريخ ككلّ، ولتاريخ المنطقة على وجه الخصوص، حتى وقت قريب جدًّا، بل لم تزل كذلك، في كتب الذين تتأخّر بهم هممهم وأدواتهم، فلا يواكبون جديد نتاج العقل الإنسانيّ واكتشافاته.

ب ـ في كتب النصارى

لم يكتف اليهود بما فعلوه بعيسى عليه السلام، بل عمدوا إلى ما ترك، فعبثوا به وحوّروه، ليؤيّد اتّهامهم إيّاه بادّعاء الألوهيّة[1]. وفي مجمع نيقية ٣٢٥ م، تمّ إلحاق المؤمنين مع عيسى رسميًّا باليهود عن طريق غربلة كتبهم المقدّسة، وإلحاقها بتوراتهم، وإخراجها بصورة تكرّس فرية ألوهيّة المسيح. وبذلك فُرض الفكر اليهوديّ على المؤمنين بالمسيح، وشُوّهت حقيقة علاقتهم بدين موسى من جهة، وبدين محمّد من جهة أخرى، ليضمن اليهود أن يكون هؤلاء لهم تبَعًا.

---

(١) انظر قصة المسيح عليه السلام.

وهذا التزوير المدروس جزء من مخطّط مازال المفسدون في الأرض عليه عاكفين، ومن ثماره، التي بين أيدينا، ما نراه من خضوع الغرب المسيحيّ إلى نفوذ اليهود في كلّ الميادين، وانحيازه السافر إلى قضاياهم، وعدائه غير المبرَّر للمسلمين. ولو أُتيح للنصارى اليوم أن ينظروا في أناجيلهم من خارج الطوق اليهوديّ، لتغيّر كلّ ذلك، ولأدركوا المؤامرة التي جُرّوا إليها وهم لا يشعرون.

ولا تزال الأبواب المُفضية إلى تلك الحقائق تُغلَّق أمام الخُطا، في دأب وحرص لا يَخفيان على من ألقى السمع وهو شهيد. ولكن لا يمكن، وفق نواميس الله في الوجود، إلاّ أن يكون ثمّة من يتحرّى تلك الحقيقة، ويحفظ لديه أدلّته عليها، ولسوف يخرجها للناس يومًا، رغم تلك القرون المتطاولة من استبداد الزيف، واستحكام أحابيل المؤامرة، والمسلمون على رأس المسؤولين عن ذلك.

أمّا نحن، فحسبنا أن نضع أصابعنا على النقاط التي نلمح فيها ظلاً من الحقيقة المعتقلة في أعماق الزنازين، ولسنا نطمعُ في أن يقول كثير من المخلصين لطريق عيسى عليه السلام: نعم هذا حقّ.

ج ـ في الفكر الإسلاميّ

أبرز أسباب التلوّث بالإسرائيليّات في الفكر الإسلاميّ:

ـ العبث بالكتب المقدّسة للنيل من الإسلام

عندما ظهر الإسلام كانت قرارات نِيقية قد وضعت حدًّا للتلاعب بنصوص ما صار يعرف بالكتاب المقدّس، فحوّل المتلاعبون نشاطهم إلى الكتابات المتأخّرة كالتلمود، وإلى ترجمات النصوص التوراتيّة والإنجيليّة، للتنقيب، حصرًا، على ما لم يطله التحريف من خبر الرسالة الجديدة وحاملها، بهدف طمس ما أمكن منه، أو تحويره، أو قلبه. ولم يزل هذا مستمرًّا حتى اليوم، بصورة تدريجيّة، تتّسع فيها دائرة التحرّي مرحلةً بعد مرحلة، بحيث يُعفّى على كلّ ما يمكن أن يُنفَذ منه إلى الحقّ الذي يُراد طمسه.

وقد تنبّه المسلمون إلى هذا الضرب من التزوير الذكيّ، وذكروا بعض أشكاله كرسم الكلمة، وتحريف التفسير والتأويل، ومن ذلك قول الشهرستانيّ: «ما حرّفوه

وغيّروه وبدّلوه، إمّا تحريفًا من حيث الكتابة والصورة، وإمّا تحريفًا من حيث التفسير والتأويل»[1]. ولكنّ أمثال هذا التنبّه والتنبيه لم يبلغ أن يحول دون تلوّث الفكر الإسلاميّ بذلك العبث، على تفاوت في النسبة، وتفاوت في العمق، وتفاوت في سعة الطيف.

وسوف تظهر في تضاعيف القصص شواهد على ذلك، كالتخلّص من الكلمات ذات الصلة بالإسلام ونبيّه، ولاسيّما تلك التي تثبت صلةً لإبراهيم بالحجاز[2]، وإثبات بدائل بدعوى أنّها شروح لها، أو تعاريف بها، ومن ذلك نزع كلمة «التيمن» من خطّ سير إبراهيم عليه السلام بعد انطلاقه من بيت المقدس، وإثبات الاتّجاه إلى الجنوب[3]، ومنه التلاعب بكلمة «فاران» لتشويه صلتها بالحجاز، وهزّ مصداقيّة دلالتها[4]، ومنه كذلك حذف كلمة «الفارقليط» من ترجمة إنجيل يوحنّا لطمس البشارة بمحمّد صلى الله عليه وسلم[5].

ـ إشاعة يهود المدينة للفكر التوراتيّ ومحاربتهم للإسلام

لم يكتف المفسدون في الأرض بما طمسوه من وجه الحقّ في كتبهم وكتاباتهم وفي كتب النصارى، بل راحوا يتابعون دورهم المخرّب في حاضرة الإسلام والوحي يتنزّل. ولمّا حفظ الذكرَ منزِّلُه، امتدّت أيديهم إلى سنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم. ومعروفة محاولات يهود المدينة أن يطفؤوا نور الله بأفواههم، ومؤامراتهم على كتاب الله وسنّة رسوله، وما اجترحوه من الدسّ والوضع في الحديث الشريف. ورغم أن هذا أفرز علم الحديث، الذي يشهد للعقل المسلم بأعلى درجات القدرة، لا نستطيع أن ننفي أن الأيدي السود التي زرعت الإسرائيليّات في كتب التفسير، قد وصلت من حديث رسول الله إلى حيث لم تصل من كتابه الذي نزّله وحفظه.

---

(١) الملل والنحل ١: ٢١٢.

(٢) انظر الرحلة إلى الحجاز في قصة إبراهيم عليه السلام.

(٣) انظر قصة إبراهيم عليه السلام.

(٤) انظر قصّة موسى عليه السلام.

(٥) انظر قصة عيسى عليه السلام.

ويهود المدينة، باعتبارهم أهل الكتاب، كانوا ممثّلي الثقافة، وذوي القراطيس والأقلام، فهم عبر التاريخ " البدو الكتبة " الذين رسموا وجه العالم في الصحف كما شاؤوا[1]. ولأنّهم يمثّلون المعسكر المضادّ للوثنيّة، كان السماح المشروط بالأخذ عنهم. وهكذا لجأ المسلمون إليهم فيما كان يعرض لهم من الأمور العلميّة، ولا سيّما لدى وقوفهم أمام القصص القرآنيّ، الذي يثير كثيرًا من الأسئلة، بسبب الأسلوب الخاصّ في تناوله. وقد استغلّ أولئك ذلك الوضع، بل يغلب على الظنّ أنّهم كانوا وراء تلاعب، لم يزل خفيًّا، بمفهوم حديث الأخذ، وتوجيهه بحيث اعتبره كثيرون أمرًا بالأخذ عن يهود المدينة.

ـ ملابسات حديث الأخذ

وبالنظر إلى ما تقدّم فإن أسوأ فهم مني به نصٌّ هو فهم حديث رسول الله، وشطره الثاني تحديداً: «بلّغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[2]. ذلك أنّه اعتُبر على نطاق لا يُستهان به، إذنًا مفتوحًا بالأخذ عن يهود المدينة، سواء في ذلك الأخذ بالمشافهة والأخذ من الكتب[3].

وقد أثار هذا الحديث أكثر من تفنيد عند من لا يبخلون على الحقيقة بجهدهم، وأبرز مقولاتهم أنّه، ﷺ، كان قد نهى عن الأخذ عنهم والنظر في كتبهم، ثم حصل التوسّع في ذلك، فقال ما قال. وقد أورد ابن حجَر طائفة من هذه التفنيدات، ليس فيها ما يقطع بأن قوله، ﷺ، إذن غير مشروط بالأخذ عن أهل الكتاب[4]، بل فيها ترجيح للتحديث بما لا يخالف القرآن وصحيح السنّة.

وأوّل ما ينبغي الأخذ به أن تحريف أهل الكتاب ذُكر في أربع آيات بيّنات في كتاب الله، تبسط القول في حالات التحريف والتزوير، وتنطوي على استهجان واضح

---

(١) كانت المناطق التي جابتها القبائل البدويّة اليهوديّة، ودبّجت أخبارها في توراتها، كما شاءت، حوالي القرن الخامس قبل الميلاد، مركز نشاط العالم في كلّ المجالات، وقد انتقلت منجزاتها الحضاريّة، ولاسيّما الفكريّة، وعلى رأسها توراة اليهود، إلى سائر أنحاء المعمورة.

(٢) صحيح البخاري: ٣٢٧٤.

(٣) المرجّح أن حديث الأخذ قد فهم على وجهه الصحيح في حينه، وأن التلاعب بتوجيهه متأخّر.

(٤) ابن حجر: فتح الباري ٦: ٦١٧.

لتلك الفعلة، وما ينتظر مرتكبيها من عقاب...[1] وفي هذا نهي واضح عن اعتماد ما جاء في تلك الكتب، بله ما يجيء على ألسنة الموتورين من أصحابها في مدينة رسول الله. وقد يعجب المرء أمام هذه الآيات الصريحات، وأمام أكثر من حديث في النهي عن الأخذ عن هؤلاء ومنهم، أن يؤدّي حديث الأخذ المذكور إلى هذا الطوفان من الإسرائيليّات المخجلة، التي يعجّ بها الكثير من تفاسيرنا، وهي، في جمهورها، ذلك الذي حرّفه أهل الكتاب من الحقّ!

وثاني ما ينبغي الأخذ به أن التعبير عن يهود المدينة ببني إسرائيل ليس صحيحًا ولا مستعملاً في المصادر العربيّة، ولا في كتاب الله وحديث رسوله[2]. وهذا يوجّه إلى أن المقصود بحديث الأخذ إنّما هو أحاديث بني إسرائيل وقصصهم المذكورة في القرآن الكريم. وفي تعليقه على الحديث يقول الدكتور مصطفى البغا: «أي عمّا وقع لهم من الأمور الغريبة»[3].

ـ الوعّاظ والقصّاصون والرواة

تتولّى الحكايات والأقاصيص كِبر التلوّث التوراتيّ، الذي ابتُلي به الفكر الإسلاميّ ولمّا يزل، وذلك لما تتمتّع به القصّة كجنس أدبيّ من خاصيّة الجذب، ولما في النصّ التوراتيّ من نفس خرافيّ عجائبيّ، وعرض حكائيّ أغرى الوعّاظ والقصّاصين وأصحاب الروايات، ووجدوا فيه مادّة صالحة لوضع سيَر للأنبياء، وذلك بترميم القصّة القرآنيّة، وسدّ الفجَوات في الخطّ الدراميّ في أحداثها بما يستعيرونه من مصادر أهل الكتاب. ولم يتورّع المفسّرون، عن الغرف من هذه المادّة السائغة المبذولة على اختلاف في كمّية المأخوذ منها ونوعيّته، فإذا وجدنا أبا حيّان يُعرض عنها في أماكن كحكم داود في النعاج، ويقول: ونحن كما قال الشاعر:

---

(١) انظر الآيات ٤٦ من سورة النساء، و١٣و٤١ من المائدة، و٧٥ من البقرة.

(٢) وتلك نتيجة جمعت لها من الأدلّة ما وسعني وأقنعني. وما جاء في الذكر الحكيم من خطاب لبني إسرائيل جزء مما يقصه علينا من قصصهم، وقد فقد دلالته الحقيقية منذ زمان موسى. وهذا يحتاج إلى بحث خاص.

(٣) صحيح البخاري بتحقيقه: ٣٢٧٤، وانظر استعمال التسميتين في الحديث رقم ١٩٠٠.

ونؤثر حكم العقل في كلّ شبهة إذا آثر الأخبارَ جلاّسُ قُصّاص

فإنّنا نجد في بحره المحيط من أوشالها ما يثير العجب.

أبرز مظاهر التلوّث بالإسرائيليّات في الفكر الإسلاميّ:

ـ الوضع والتحريف في الحديث الشريف

من أدلّ الشواهد على التلوّث التوراتيّ في الحديث النبويّ كثرة المصنّفات في الضعيف والموضوع. ومعروف أن يهود المدينة تزعّموا حملة الوضع في حديث رسول الله ﷺ، والكذب عليه، وتناقل الناس من ذلك الشيء الكثير ومازالوا، على الرغم من جهود علماء الحديث المضنية في تتبّعه ورصده ونفيه. وممّا يلفت النظر أن علماء الحديث القدماء والمحدثين، الذين تصدّوا لضعيف الحديث وموضوعه، لم يولوا الكشف عمّن كانوا أصل هذا التحريف والتخريب، وفضحَ حاملي كِبره الاهتمام اللازم، واكتفوا، في الأغلب الأعمّ، بتناول رواة الحديث ونقَلته من الرجال الظاهرين.

وإذا كان هذا كافيًا ومجزئًا لتصنيف الحديث، فإنّه من ناحية أخرى يساهم في طمس حقيقة ينبغي لنا أن نحتفظ بها حيّة في ذواكرنا، ذلك أن ما يقع علينا اليوم كمسلمين من استهداف وعدوان وتآمر، ليس إلاّ امتدادًا لتلك المؤامرات الخبيثات، وبعضًا من ذراريها. ويتّصف عمل هؤلاء الوضّاعين والكذّابين بسعة الخبرة، وتعدّد الأساليب في الدسّ والتخريب، ممّا يُضاعف الجهود المطلوبة ممّن يتصدَّون لكشفه، ويصعّب مهمّتهم. ولا يزال عامّة المسلمين إلى اليوم يتناقلون الكثير ممّا فرغ العلماء من تضعيفه والحكم بوضعه وكذبه ممّا يصرّ بعضهم على تصنيفه في الحديث.

يضاف إلى هذا ما وَجّهته الإسرائيليّات، بقصد وبدون قصد، من الأحاديث، وما تخلّلته من صحاحها فسرقت من مصداقيّته، ممّا جعل الزور يتسلّق الحقّ، ويسير بشفعته، ولا سيّما فيما يخصّ القصص القرآنيّ، وقد عرضنا نموذجًا من ذلك في حديث الإسكان[1].

---

(١) انظر قصة إبراهيم عليه السلام.

ولعلّ بإمكاننا اعتماد آثار ابن عبّاس رضي الله عنه نموذجًا لذلك العبث. فقد أربكني أن وقفت فيما أُسنِد إليه على تيّارين بينهما برزخ لا يبغيان. أمّا أحدهما، فتبدّى فيه وجه ابن عبّاس العالم المحقّق الملتزم، الجدير به قول سيّد الخلق «حبر الأمّة، وترجمان القرآن»[1]. وأمّا الوجه الآخر، ففكر خرافيّ، يتّخذ سمت القصّاصين وأصحاب الروايات، ولاسيّما الإسرائيليّات[2].

وهذا ممّا يحمل على الشكّ في صلة ما ينتمي إلى التيار الثاني بابن عبّاس، حتى إنّني خيّل إليّ أن سطوع التباين بين هذين التيارين، واحدة من الآيات البيّنات، على أن الحقّ لا يمكن طمسه. وقد وقر في قلبي أن مقولة رسول الله في ابن عبّاس قد جعلته صيدًا ثمينًا لذوي الأيدي السود[3]، التي عبثت بكثير ممّا نسب إليه، لكي تطعن في تلك الشهادة وفي صاحبها، وتسيء إلى الأمّة والقرآن بالإساءة إلى حَبرها، وتَرجمانه...

ـ غزو الإسرائيليّات لكتب التفسير

ثم إن هؤلاء لم يقعدوا مكتوفي الأيدي أمام الباب الموصد دون كلمات الله، بل راحوا يدوفون سمّهم الزعاف في مداد من تصدَّوا لفقه النصّ القرآنيّ، فعانى الفكر الإسلاميّ، ومن ورائه الأمّة كلّها من آثار ذلك التلُّوث ما لم يعد خافيًا.

---

(١) ومن نماذج هذا التيار ما روي عنه من " أنه كان لا يصلّي الضحى، ويقول: أين هي في القرآن؟ حتى قال بعد "هي قول الله: "يسبحن بالعشيّ والإشراق" ١٨: ص. هي الإشراق، فصلاّها ابن عباس رضي الله عنهما". التفسير بالمأثور للسيوطي، في تفسير الآية.

(٢) ومنه ما نقل عنه عن عوج بن عنق، وقال فيه ابن كثير: "وفي إسناده إليه نظر. ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات. وكل هذا من وضع جهّال بني إسرائيل..." (قصص الأنبياء ٢: ٢٨٨).

(٣) عبارة الأيدي السود لا تخص قومًا بأعيانهم، بل هي ظاهرة قائمة في كل زمان ومكان، يدل على أصحابها التاريخ، ويكشف عن هوياتهم البحث العلميّ النزيه.

ولا يعفي هذا التآمر المفسّرين الآخذين بالإسرائيليّات، من المسؤوليّة عن إشاعة هذا الفكر الهدّام في الذين آمنوا، ولا يشفع لبعضهم التعليق على مثل هذا الهراء بالقول: «إنّه حديث خرافة» بعد أن يملأ به الصفحات تلو الصفحات، حتى إذا ما بعُد العهد بالفكر النيّر، وتدنّى تمثّل الأمّة لمعاني ومقاصد كتاب الله، كان هذا الهراء وحده المفهومَ والمعتبَر في سواد الفكر، وترك من بصماته السود ما ترك، فقاد الأمّة إلى ما هي عليه اليوم، إلاّ ما رحم ربّي.

وممّا يؤسف له أن أكثر كتب التفسير سيرورة في أوساط سواد المسلمين أكثرها حشدًا للإسرائيليّات واحتفالاً بها، وممّا هو أدعى للأسف، أن هذه التفاسير ما تزال حتى اليوم تحظى بالاهتمام، وتجد، في المؤسّسات والأفراد، من يتعهّدها بالتحقيق والدراسة والتعليق، فيُطيل أمد بقائها في التداول، ويضمن امتداد ظلّها قرونًا أخرى، ليحجب الفكر الإسلاميّ العلميّ السليم عن عقول سواد المسلمين وحياتهم.

ـ ظهور النمط الخرافي العجائبي في الفكر الإسلاميّ السائر

ترك التلوّث التوراتيّ، الذي رصدنا بعضًا من مظاهره، بصمات مخرّبة في الفكر الإسلاميّ عمومًا، وفي مساحة لايُستهان بها من النتاج الموثّق لهذا الفكر. حيث ظهر نمط من التفكير الخرافيّ العجائبيّ، الغريب عن طبيعة الخطاب القرآنيّ والنبويّ في الإسلام.

وقد زاد البلّة طينًا أن ما اعتُبر إذنًا بالأخذ عن أهل الكتاب أدّى إلى الأخذ عنهم مشافهة إضافة إلى الأخذ من مصادرهم المكتوبة. ويبدو أن ذلك المُناخ أطلق خيال الرواة والقصّاصين، من خرّيجي المدرسة التوراتيّة الخرافيّة، فألّفوا حكايات على نمط الإسرائيليّات لتغطية ما لم تُغطّه الإسرائيليّات، وقد ظهر هذا جليّاً في تناول القصص القرآنيّ في معظم التفاسير، حيث ذهب هؤلاء في بعض الأمور مذاهب ما أنزل الله بها من سلطان، ولا أثر لها حتى في توراة اليهود[1]، بل إن بعضهم لفّق بين الروايات التوراتيّة، وتلك التي اخترعها القصّاصون ليغطّوا أحداثًا انفرد بها القرآن

---

(١) انظر قصّتي إبراهيم وسليمان عليهما السلام.

الكريم، فبدت الأمور غاية في البلبلة والفوضى والإحالة[1]، واقتضى الأمر مع مرور الزمن مزيدًا من المناقشات والافتراضات والتفريعات، في ظلّ الإجلال المعروف لكلّ ما هو قديم من جهة، والحرص على الروايات مهما بلغت عددًا من جهة أخرى.

ولم تلبث ظاهرة الروايات المتعدّدة أن استغلظت في كتب التاريخ والتفسير والحديث والسيَر، وفي قصص الأنبياء على وجه الخصوص، فأُغرق النصّ بالروايات، وباتت تُعتبر بعضًا من ثقافة المفسّر أو المحدّث أو المؤرّخ، تتناقلها الكتب مع النصّ. وعلى امتداد الزمن باتت تشكّل جدارًا من الصور التوراتيّة والإنجيليّة، والأخرى المخترعة على نمطهما، تستحضرها الذاكرة مع النصوص القرآنيّة، فتحول دون مباشرتها كفاحًا، والنظر فيها بحريّة في ضوء ما اكتسبه العقل البشريّ من مهارات، وماأُتيح له من أدوات. وبات المسلم، الذي يُنعم الله عليه بشيء من العلم الدينيّ أو الثقافة الإسلاميّة، يفاجأ بأن كثيرًا من أفكاره ومعلوماته، المتعلّقة بالقصص القرآنيّ خاصّة، ما أنزل الله بها من سلطان.

ومن أسوأ ما أفرزه غزو الإسرائيليّات لكتب التفسير المقولة المتداولة أن قِصص الأنبياء في القرآن الكريم هي نفسها التي في التوراة والأناجيل، وتلك فرية لم تلقَ من علماء المسلمين الدحض المطلوب. وقد كان لسيطرة التفسير بالإسرائيليّات دوره في سيرورة هذه الفرية، إذ باتت القصّة التوراتيّة والإنجيليّة ملازمة للقصّة القرآنيّة في كتب التفسير، بل باتت تبتدرها إلى الذهن، وقد نحّى هذا الأمر صورة النبيّ كما أرادها الكتاب العظيم، ومثّلتها السيرة الصحيحة لرسول الله، في كتب التفسير، وأكسب تلك الشخصيّة الطابع الخرافيّ الغيبيّ التوراتيّ المعروف، كما فتح الباب للمفترين من أهل الكتاب، في الماضي والحاضر، ليزعموا أن النبيّ ﷺ إنّما أخذ هذا القصص من كتبهم[2].

---

(١) انظر الكلام في التلفيق بين الإسرائيلية القائلة بأن سارة أوصت إبراهيم ألاّ يترجل لدى زيارته لإسماعيل وأمه، وبين إسكان إبراهيم إسماعيلَ وادي مكة، في قصة إبراهيم عليه السلام.

(٢) على رأس زاعمي ذلك المهزلةُ المدعوّة بدائرة المعارف الإسلاميّة، والتي تمثّل أصدق تمثيل تجرّؤ أعدائنا على مقدّساتنا.

ولو أن أولئك الآخذين بالروايات، الحريصين عليها، حوّلوا اهتمامهم إلى النصّ القرآنيّ، فتدبّروه في ذاته، وفي موقعه من السياق المبين، وما أضاف وما خصّص وما فصّل أو أجمل، واستبطنوا لغته، ونفذوا إلى أسرار الحروف والتراكيب، وخبروا أساليب البلاغ، وتقنيّات المزاوجة في التعبير بين الصوت وظلال المعنى، لأعانهم ذلك على النظر في النصوص، وجنّبهم كثيرًا من الأوهام. فإن عظمة لغة القرآن تكمن في ذلك الكمّ الهائل من العلائق، التي لا تخطئها الفطرة السليمة، بين المعاني الباطنيّة، وصورها السمعيّة، ونسقها التركيبيّ، وهو بعض من بديع حفظ الله للذكر الذي نَزّل.

ومن أسوأ ما جنيناه من الإسرائيليّات احتكار أفق الفكر الإسلاميّ السائر، وتسطيح هذا الفكر، أي استهلاكه فيما هو على سطح النصوص، وشغله عن الاتّجاه إلى عمقها، وإضفاءُ صفة اللاّمنطقيّة والمجّانيّة عليه، وإدخالُ النمط الأسطوريّ والغيبيّ المزعزع القاعدة، والعنيف إلى درجة الإجرام إلى هذا الفكر. ويبرز ذلك العنف الإجراميّ فيما تُطنب توراة اليهود في تصويره من المعارك الانتقاميّة، وصنوف العقاب الإلهيّ، وفيما يخصّ صلب المسيح في الأناجيل، وهذا أمر خطير لم يُعطَ حقّه من البحث والتجلية.

ومن جناية هذا الفكر على المسلمين أنّهم اليوم لا يملكون الخطاب الذي يُقنع العالم بحقيقة كالشمس، لا هي بالمجهولة، ولا أدلّتها بالخافية، تلك هي الحقيقة التي تقول: إن العنف الذي يُرمى به المسلمون اليوم ليس له وجود في كتابهم ولا في أخلاقيّاتهم، وأنّه كان، وما يزال، توراتيّ الوجه واليد واللسان.

إن دراسة العنف في توراة اليهود، في تصويرهم للعقاب الربانيّ الدنيويّ من جهة، وفيما يزعمون من تنكيلهم بأعدائهم المنهزمين من جهة أخرى، لممّا ينبغي للمسلمين إبرازه للعالم الذي ينعق بما يمليه عليه الصهاينة من كلّ الجنسيّات، فيرمي المسلمين بالعنف بهتانًا وزورًا، وتقديمه كوثيقة إدانة لهذا الفكر الذي صدّره اليهود إلى الشعوب في كتابهم المقدّس، ولا

يزالون يصدّرونه عبر مؤسّساتهم الإعلاميّة، وعلى رأسها أفلام هوليوود، التي دأبت منذ بدايات القرن الماضي على تكريس العنف، والترويج له، بالتوازي والتزهيد بكل ما يمتّ إلى الأخلاق والفضيلة بصلة، حتى آل الأمر إلى جعل أفلام العنف والجريمة والجنس خبزًا يوميًّا على كلّ مائدة في المعمورة، بعد ثورة الاتصالات الحاليّة، والعبث بفكرة العولمة لاستغلالها لهذا الغرض.

وقد عرض كثيرون لموجبات منع الأخذ بالإسرائيليّات، وموجبات جواز ذلك، وبأدنى النظر في هذا يتبيّن أن أدلّة المنع أو موجباته هي الأقوى[1]. وينوّه ابن تيميّة بقلّة الرجوع إلى أهل الكتاب في عهد الصحابة، ويشير إلى السبب في استشرائه في عهد التابعين، حيث وُجد أولئك «الذين كانوا يخلطون حديث رسول الله والتفسير في المساجد بالقصص حتى يجذبوا الأسماع إليهم، ويستميلوا قلوب الناس إلى حكاياتهم»[2]. فهو داء سببه الجهل، وعدم التبصّر في عواقب الأمور، إضافة إلى ما أشرنا إليه آنفًا من الأسباب.

هكذا عُسف التاريخ والوقائع والشواهد، واختُرقت كتب النصارى، واستُلب الفكر الإسلاميّ العامّ، إلاّ ما رحم ربّي، ممّا طغى عليه المدّ، فاستكنّ في الأعماق ينتظر الغوّاص ذا العِدّة الرشيد، وحُشر كلّ ذلك للسير في ركاب توراة اليهود. ويشهد العصر استحواذ فِرى هذا الكتاب ومفرزاتها على الفكر العالميّ، وإدارتها دفّة السياسة العليا المتحكّمة في الأرض وفق مخطّطاته.

* * *

(١) الإسرائيليات في التفسير والحديث للدكتور محمد حسن الذهبي.

(٢) مقدّمة في أصول التفسير ص ٤٢.